القارئ الضمني
في كتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني

أ.د. فاضل عبود التميمي

جامعة ديالى - العراق

الملخّص:

يأمل هذا (البحث) أن يستقري الخطاب البلاغي: النقدي عند: (الباقلاني 403هـ)، في كتابه المهم: (إعجاز القرآن)، مستنطقًا إياه في واحدة من أهمّ قضايا النقد المعاصر: (القارئ الضمني) Implicit Reader الذي كان الناقد الألماني: (آيزر) أوّل من قال به في مقابل مفهوم: (المؤلف الضمني) الذي طرحه (واين بوث) الذي أراد به: الأنا الثانية للمؤلف التي تنفصل عن أناه المرتبطة بشروط الواقع، وعند (آيزر) أنّ النص أيّ نصّ لا ينطوي على (مؤلف) ضمني، وإنّما على توجه ضمني هو أساس عمليّة التوصيل، والاتصال مع القارئ الحقيقي.

و(البحث) إذ يعمد إلى ربط تفكيرين نقديين بعيدين زمانا ومكانا إنّما يريد أن يسيح في حقل معرفيّ مفتوح الأفق بعيدا عن الرغبة في التقويل، والإسقاط المتعمد لما هو حديث على ما هو قديم، وهدفُهُ الإشارةُ إلى أهميّة المنجز العربيّ القديم في تجلّياته التي لما تزل شاهدة على وجوده المهم.

لقد ثبت للبحث أنّ (الباقلاني) كان قد استدعى شكل (القارئ الضمني)، ووجوده الذهني في كتابه، وإنْ لم يسمه بـ(القارئ) إنّما سمّاه بـ(السائل)، و(القائل)، وهو ما بدا واضحا في حضور مجموعة من الإجراءات التي تحيل على مضمون ذلك القارئ، وتفاعل (المؤلف) مع حالاته التي تدلّ على انبثاق المتعة، والمشاركة في إظهار الكتاب.

اعتمد (البحث) رؤية تحليليّة منفتحة على عدد من المصادر، والمراجع التي أعانته على تشكيل مقترباته، وإجراءاته في حدود هدفه المعلن، وخاتمته آخذًا بنظر الاعتبار مكانة (الباقلاني) في نظريّة الإعجاز القرآني، وتطبيقاتها التي تثبت بالدليل الواضح اكتنازها بقدر غير محدود من الأفكار النقديّة، والرؤى التي تتّسع لمزيد من التحليل، والتأويل.

البحث:

كان الناقد الألماني: (آيزر) أوّل من قال بمصطلح: (القارئ الضمني) في مقابل مفهوم: (المؤلف الضمني) الذي طرحه (واين بوث) الذي أراد به: الأنا الثانية للمؤلف التي تنفصل عن أناه المرتبطة بشروط الواقع، وإنْ كان الأخير قد أشار إلى أنّ (القارئ الضمني) يعني أنّ البناء السردي للرواية –أحيانا– يتضمن توجّها مباشرا إلى القارئ، وعند (آيزر) كما يقول ناظم عودة إنّ النص أيّ نصّ لا ينطوي على (مؤلف) ضمني، وإنّما على توجه ضمني هو أساس عمليّة التوصيل[1]، والاتصال مع القارئ الحقيقي.

و(القارئ الضمني) عند (آيزر) ليس له حضورٌ حقيقيٌّ؛ أي أنّ حضوره مجازيٌّ يجسّد مجموعة من التوجهات الخاصة بـ(تخيّل) المؤلف، لكي يكون (تخييل) المتلقي متمكّنا من إدراكه، أي أنّ وجوده مقترن بوجود النص[2]،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/529

الذي لا تتحقّق دلالته إلا من خلال قارئ آخر يُعِيد صياغة المتن ليكون حاضرا في النص بمعنى أنّه: ((ماثلٌ في ذهن المنشئ زمن الإنشاء يعقد له حُبُك النِّطاق الذي لا يَخرج عليه النص))[3]، وغائب تمامًا عن عيون القارئ الاعتيادي.

ويمضي (آيزر) كما ينقل د.شكري المبخوت في توضيح فكرة (القارئ الضمني) مؤكّدا أنّه ليس شخصا خياليّا مدرجًا داخل النص، بل هو أثرٌ مكتوبٌ، وظيفته استدعاء استجابة القارئ الحقيقي لما في النص[4]؛ أي أنّ أثره يبرز من خلال الإشارة إلى ما هو خفيٌّ في النص اعتمادا على (الذخيرة) التي رأى أنّها: ((مجموع المواضعات التي يمتصّها النصُّ من عناصر معلومة سابقة، لا ترتبط تلك العناصر بالنصوص السابقة، إنما تتّصل بقوة أكبر بالمعايير، والقيم الاجتماعيّة، والتاريخيّة، والسياق السوسيو ثقافي الذي ينحدر من النص))[5].

وعلى الرغم من أنّ فكرة (القارئ الضمني) حديثة التشكيل تردّ إلى (جماليّة التلقي) التي ظهرت في ألمانيا بوصفها اعتراضًا على طبيعة الفهم البنيوي للأدب في السبعينيات من القرن العشرين[6]، يستطيع الباحث المعاصر أنْ يجد لها حضورا في الخطاب البلاغي: النقدي العربي القديم، مع علمه أنّ ذلك الحضور يثير إشكاليّة معاصرة تنفتح على بعض المقولات المعاصرة التي ترى: ((أنّ التركيز على المتلقي وجعله مكوناً من مكونات النص الأدبي ليس له نظير في نظريّات النقد القديمة وهو نهج جديد تماماً))[7] ، وهذا ما لا يمكن الاطمئنان إلى صحّته إطلاقاً، فليس كثيراً على نقدنا القديم أنْ يستحضر صورة أثر مفترض في متنه لاسيّما عند النقاد الكبار[8].

ويبدو لي أنّ من يقرأ كتاب: (إعجاز القرآن) للباقلّاني[9]، سيجد أنّ من أهمّ مزاياه النصّيّة: حضور القارئ الضمني في متنه، فقد كان الباقلاني مهتمّاً بمتلقيه، وهو يديم النظر في فصول الكتاب، فكأنّه يريد أنْ يجعل من القارئ (الحالة) قناة اتصال حاملة أفكار الكتاب نحو القارئ الحقيقي، لكي يشركه في إنتاج المعرفة، وتقبّل النصّ معاً، في سابقة تاريخيّة يجب الإشارة إليها، وكأنّ الكتاب عند (الباقلاني) متن مؤلّف ممّا ((يرويه المنتِج ويقوله، وما يدركه المتلقِّي))[10].

قارئ (الباقلاني) الذي يرغب هذا (البحث) في أن يكشف عن ملامحه المنهجيّة لا يمكن إنكاره، وإنْ كان خيالُ المؤلف المنهج قد صَنَعَ شكله، وثقافته في لحظة الاحتدام مع النصوص، ليجعل من كيانه الهلامي أثرا يهدف إلى إيصال الفِكَر إليه، أو التحاور معه، أو إدارة دقّة النقاش معه انطلاقا من حقيقة: ((أنّ صورة القارئ تكون حاضرة باستمرار في وعي الكاتب حتى ولو كانت مجردة))[11] ، وهذا يعني أنّ وجود القارئ، أو المتلقي في ذهن المؤلف يعطي للأخير قوّة منهجيّة هدفها توجيه البحث، وتحديد أبرز مهيمناته النصيّة، وهي تتبادل الموقع بين ذاكرتين: مُستقبِلة، ومُنتجة .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/529

تبدو فكرة القارئ الضمني في: (إعجاز القرآن) ظاهرة للعيان من الصفحات الأولى من الكتاب، فالباقلاني يفترض في مقدمة الكتاب وجود قارئ غير محدّد توجه أنظاره إلى متن الكتاب، وقد اشترط فيه أنْ يكون: ((من أهل صناعة العربيّة، وقد وقف على جمل من محاسن الكلام، ومتصرّفاته، ومذاهبه، وعرف جملة من طرق المتكلمين، ونظر في شيء من أصول الدين))[12] ، فقارئه الضمني هنا يتطابق مع القارئ الخبير، أو المعلّم (informed Reader) أي ليس بالقارئ الاعتيادي، فضلا عن ذلك والكلام للباقلاني لا يمكن أن يكون: ((عن معرفة الأدب جاهلا، وعن وجه اللسان غافلا))[13] ؛ أي أنّ له معرفة بالأدب، واللسان المنفتح على المعجم، وقضايا اللغة، وما له من صلة بنتاج العربيّة ممّن له ذوقٌ ومرانٌ عقليٌّ، فكأنّه قارئ عبد القاهر الجرجاني (471هـ) الذوّاقة المعوّل عليه في فهم الخطاب الذي عناه بقوله: ((وأعلم أنَّه لا يصادف القول في هذا الباب موقعًا من السامع، ولا يَجد لديه قبولاً حتى يكون من أهل الذَّوق والمعرفة، وحتى يكون ممّن تحدِّثُه نفسه بأنَّ لما يؤمئُ إليه من الحُسن واللُّطف أصلاً، وحتى يَختلف الحالُ عليه عند تأمّل الكلام، فيجد الأريحيّة تارة، ويَعْرَى منها أُخرى، وحتى إذا عجبّته عجِب، وإذا نبّهتُه لموضوع المزية انتبه))[14] .

ويخاطب الباقلاني في خاتمة الكتاب ذلك القارئ، وقد تأكّد أنّه شمل الكتاب كلّه بالقراءة الدقيقة، والتلقي المفيد فيدعوه الى التأمل، وتفريغ القلب من أيّ شاغل لغرض القراءة: ((فتأمل ما عرّفناك في كتابنا، وفرّغ له قلبك، واجمع عليه لبّك، ثم اعتصم بالله يهدك، وتوكّل عليه يعنك ويجرك، واسترشده يرشدك، وهو حسبي، وحسبك ونعم الوكيل))[15] ، فالباقلانيّ حريص على توجيه قارئه إلى الارتداد إلى نفسه لتأمل أحوالها المختلفة، من ارتياح أو ضيق، ومن تحمُّس أو ملل، ومن إقبال أو نفور، ومن حبّ أو بغض، وبعبارة أخرى كأنّه: عَمِدَ إلى حثّه على فحص نفسه[16]، وهو يدعوه إلى قراءة منتجة تتّسع للفهم، والشرح، والتأويل بعد الاسترشاد بهدي الله عزّ وجلّ، والاتّكال عليه، بقلب منفتح، ولبّ واعٍ.

إنّ قارئ الباقلاني، بحسب شروطه السابقة متّصف بمؤهلات المعرفة الأدبيّة واللسانيّة، بمعنى أنّه من أهل العربيّة، وثقافتها التي تبدأ من معرفة الأدب، ونقده، وعلوم العربيّة، وفقهها وصرفها، ونحوها، وعروض شعرها، ولا تنتهي بمعرفة أصول علم الكلام، والنظر في علوم الدين، وهذا يعني أنّ قارئ الباقلاني متّقف من طراز مثقفي القرن الخامس الهجري الذين تجسّدت صورتهم في مؤلّفات كان لها الأثر في إشاعة الفكر البلاغي: النقدي، وترسيخ قيمه حتى اليوم.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/529

وللقارئ المعاصر أن يستدلّ على وجود قارئ الباقلاني الضمني من خلال المظاهر التي تحيل على فكرة التماهي التي لا بد من وجودها بين (إعجاز القرآن) بوصفه كتاب التلقي، و(القارئ الحقيقي) الذي هو هدفٌ مركزيّ للمؤلف وهي:

المظهر الأول: القارئ السائل:

في مقدمة (إعجاز القرآن) يفترضُ المؤلّفُ وجودَ سائل يسأل ليبني على سؤالاته أجوبة تحاول الإحاطة بمسوغات تأليف الكتاب أعني: البحث في إعجاز القرآن، وتحديد أبرز مقترباته البلاغيّة ليكون القارئ سائلا ضمنيّا يسهم في إنتاج متن الكتاب قبل أن يكون بين يدي القارئ الحقيقي يقول الباقلانيُّ: ((وسألنا سائلٌ أنْ نذكر جملة من القول جامعة تسقط الشبهات، وتزيل الشكوك التي تعرض للجهّال، وتنتهي إلى ما يخطر لهم، ويعرض لإفهامهم من الطعن في وجه المعجزة))[17] ، فقارئ الباقلانيّ الذي سأل أراد بسؤاله أن يسهم في قسط ((غير قليل من صياغة الأسئلة الجماليّة، والقيميَّة التي سيجيب عليها، حتى لكأنَّه السائل والمجيب في آن))[18] ، وهو –الباقلاني– إن شئت الدقة أعطي دلالة قويّة على حضور القارئ بوصفه (حالة) من حالات التساؤل الذي يفضي إلى توسيع دائرة الفهم، وترسيخ الإفهام.

وقارئ (الباقلاني) سائلٌ يقرأ، وينفعلُ بالقراءة فهو موجودٌ في وعي المؤلف، يحضر في مقدمة الكتاب ليكون شاهداً على منهجيّة تحترم القارئ الحقيقي الذي هو هدف بائن للمؤلّف، أو هو سائلٌ منتجٌ لسؤال مهمّ ودّ المؤلّف أن يفترض وجوده: ((إنْ سأل سائل فقال: هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من البديع؟))[19] ليكون الجواب حاضراً في الكتاب يحيل على وعي المؤلّف، والقارئ الضمني معا: ((ليس كذلك عندنا؛ لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب، والتعوّد، والتصنّع لها، وذلك كالشعر الذي إذا عرف الإنسان طريقه صح منه التعمّل له، وأمكنه نظمه))[20].

وكثيراً ما يسأل (الباقلاني)، وهو في فورة تعلّقه بالبحث، والمنهج متلقيّاً، أو قارئاً لا يبعد عنه كثيراً: ((فإذا كان نقد الكلام كلّه صعباً، وتمييزه شديداً، والوقوع على اختلاف فنونه متعذراً، وهذا في كلام الآدميين فما ظنّك بكلام رب العالمين؟))[21]، فكأنّ الباقلانيّ يريد أن يثبت عن طريق حضور السؤالات، والجوابات، وتبادل صيغ المعرفة بينهما أنّ نصّه: ((نصان: نص موجود تقوله لغته، ونص غائب يقوله قارئ منتظر))[22] ، وهو عين ما تقوله أدبيّات النقد الغربي الخاص بالقراءة والتلقي، فضلا عن أنّه بسؤاله السائلَ يكون قد استعار موقع السائل نفسه احتفاء بأهميّة السؤال على لسان القارئ السائل.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/529

المظهر الثاني: القارئ المحاور:

وكان المؤلّف: الباقلاني يكثر(القول) على لسان قارئ محاور ليس له حضور جسديّ لكنّ حضوره يتمثّل في مجموعة من التوجّهات التي يصنعها تخيّله لتحيل على حالة ما إشباعاً لفكرة مركزيّة أخذت جلّ وقته فودُّ أن يطرحها على بساط البحث، والتأليف إيمانا منه بأنّها تستحق العرض والحوار: ((قلنا إنّ المتناهي في الفصاحة، والعلم بالأساليب التي يقع فيها التفاصح متى سمع القرآن عرف أنه معجز[...] فإنْ قيل: فإنّ من الفصحاء من يعلم عجز نفسه عن قول الشعر [...] قيل: هو مع مستقر العادة، وإنْ عجز عن قول الشعر، وعلم أنه مفحم فأنه يعلم أن الناس لا ينفكون من وجود الشعراء فيهم [...] فإنْ قيل: لو كان كذلك على ما قلتم لوجب أن يكون حال الفصحاء الذين كانوا في عصر النبي صلى الله عليه وسلم على طريقة واحدة في إسلامهم عند سماعه، قيل له: لا يجب ذلك لأنّ صوارفهم كانت كثيرة [...] فإن قيل: كيف يعرف البليغ الذي وصفتموه إعجاز القرآن؟ [...] قيل هذا سبيله أن يفرد له فصل، فان قيل فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله [...]؟، فالجواب: أنّه لو صحّ ذلك لصحّ لكل من أمكنه نظم ربع بيت، أو مصراع من بيت أن ينظم القصائد، ويقول الأشعار، وصحّ لكل ناطق))[23].

ولقارئ هذا البحث أن يقرأ ما قاله الباقلانيّ في صفحات أخرى حتى يكتشف طبيعة الحوار بين المؤلف، والقارئ الضمني (المموّه): ((فإن قيل: فهل تقولون بأن غير القرآن من كلام الله عز وجل معجز [...]؟، قيل: ليس شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف، وإن كان معجزا كالقرآن فيما يتضمّن من الإخبار عن الغيوب))[24] ، وهو حوار يستند إلى حقائق القرآن الكريم التي اعتمدها الباقلاني مصدرا للكتاب.

والباقلاني كثيرا ما يكرّر حالة السائل المرتبطة بـ(قيل) السائلة، و(قيل) المجاوبة ليسهم في تمكين القارئ الحقيقي من فهم مسائل الإعجاز، والحصول على القيم المعرفيّة التابعة لهذا النوع من التأليف: ((فإن قيل: هذه دعوى منكم، وذلك أنّه لا سبيل لنا أن نعلم عجز الجن عن [الإتيان] بمثله... قيل: قد يمكن أن نعرف ذلك بخبر الله عزَّ وجلَّ..))[25] ، فهو في جواباته يحتكم الى ما أشاعه النصّ القرآني، و ما أشاعه النقد العربي من رؤى نقديّة شكّلت في حينها عمود النقد: ((فإن قيل: في القرآن كلام موزون كوزن الشعر [...] قيل: من سبيل الموزون من الكلام أن تتساوى أجزاؤه في الطول والقصر، والسواكن والحركات فإن خرج عن ذلك لم يكن موزونا))[26] ، وقد تكون الإجابة إحالة على نصّ سابق معروف للسائل، والمجيب: ((فإن قال قائل: فقد قَدَحَ الملحدُ في نظم القرآن، وادّعى عليه الخلل في البيان؛ وأضاف إليه الخطأ في المعنى واللفظ، وقال ما قال فهل من فصل؟ قيل: الكلامُ على مطاعن الملحدة في القرآن ممّا قد سبقنا إليه وصنّف أهل الأدب في بعضه..))[27].

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/529

إنّ التناوب التكراري لـ(قيل) من شأنه أن يحيل على فكرة وجود مؤلّف معنيّ بالتأليف، فضلا عن وجود قارئ معنيّ بالقراءة، والتدقيق، والسؤال، وملء فجوات النص البيضاء التي لا يكتمل سياقها إلا بوجود قارئ هدفه الحصول على المعنى.

وقد يكون قول السائل مرتبطا بمسائل مستقبليّة، فيكون الجواب وافيا بلا شكّ استنادا إلى ما يفحم السائل نفسه: ((فإن قال قائل: قد يجوز أن يكون أهل عصر النبي صلى الله عليه وسلم قد عجزوا عن الاتيان بمثل القرآن، وإن كان من بعدهم من أهل الاعصار لم يعجزوا؟ قيل هذا سؤال معروف، وقد أجيب عنه بوجوه [...] منها: أنّا إذا علمنا أن أهل ذلك العصر كانوا عاجزين عن الإتيان بمثله، فمن بعدهم أعجز؛ لأنّ فصاحة أولئك في وجوه ما كانوا يتفنّنون من القول ممّا لا يزيد عليه فصاحة من بعدهم))[28].

وقد يخرج سؤال المؤلّف المعقود على لسان القارئ السائل إلى ما هو معجز، ليكون الجواب محدّدا في إطار المعجز نفسه: ((إن قال قائل: بيّنوا لنا ما الذي وقع التحدي إليه؟ [...] قيل: الذي تحداهم به: أن يأتوا بمثل الحروف التي هي نظم القرآن، منظومة كنظمها، متتابعة كتتابعها، مطّردة كاطرادها))[29] ، وهذا مثله كثير: ((فإن قال قائل: أجدك تحاملت على امرئ القيس [...] فالجواب إنّ الكلام في أنّ الشعر لا يجوز أن يوازن به القرآن))[30] ، وهكذا يستمر القارئ السائل على لسان المؤلّف في محاوراته، وهدفه إيجاد طرائق واضحة لتمكين القارئ الحقيقي من المسك بالمعنى النقدي: ((إن قيل: هل من شرط المعجز أن يعلم أنه أتى به من ظهر عليه؟، قيل: لابد من ذلك))[31] ، فالقائل في العبارات السابقة هو قارئ لكنّه من نمط القرّاء الضمنيين الذين إن فتّشت عنهم لا تجدهم إلا مجسّدين في صورتين اثنتين: الأولى نصيّة تتجلى في بنية النص، والأخرى فعليّة تتجسد في بنية تستدعي تجاوبا ينتج عنه فهم وتأويل[32]، فـ(الباقلاني) في جمل القول، ومقولاته السابقة لم يكن منغلقًا على معاني نهائيّة واحدة ، إنّما كان مؤلّفا يفتح طرائق للقول مختلفة ليشكّل معان للنص تمتد إلى أبعد حيّز في فكر القارئ.

المظهر الثالث: القارئ القريب:

وهو القارئ الذي تكاد تحسّه قريبا من المؤلّف، ويشار إليه أحيانا بالضمير(أنت)، فالمؤلف كثيراً ما يخاطب هذا القارئ الذي ضمن وجوده الذهنيّ في الكتاب ليجعله مناقشاً، ومنتجاً للنص إيمانا منه بأهميّة ما يقول: ((ومتى تأملتَ شعر الشاعر البليغ، رأيتَ التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها...))[33] ، والقارئ المعاصر لا يجد شكّا من قرب القارئ من المؤلّف، واستقباله الكلام على الرغم من مرور مئات السنين على وجود المؤلّف بشكله التاريخي المعلن على غلاف الكتاب، والقارئ بحالته المفترضة في العقل النقدي: ((وأنت لا تشكّ

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/529

في جودة شعر امرئ القيس، ولا ترتاب من براعته، ولا تتوقف في فصاحته، وتعلم أنّه قد ابدع في طرق الشعر أمورا اتبع فيها...))[34].

وقد يخاطب (الباقلانيّ) القارئ الضمني بعبارات تُشم منها رائحة الدعاء الممزوج بالقرب المكاني الذي يكون سببا في تبادل المعلومة مثل: ((تأمل–أرشدك الله–، وانظر –هداك الله –: أنت تعلم أنه ليس في البيتين شيء قد سبق في ميدانه شاعرا، ولا تقدم به صانعًا، وفي لفظه ومعناه خلل....))[35] ، فالخطاب موجّه إلى قارئ غير معيّن يريد المؤلّف أن يرسل من خلاله دلالة نقديّة إلى قارئ تاريخيّ معيّن.

والمؤلف ببراعة أسلوبه، وتمكنه في البحث يريد أن (يُعْلِم) القارئ الضمني بما يعلم اعترافا منه بأهميّة الحوار في صياغة متن الكتاب، وأهميّة السياق النقدي في تمكين الإعجاز في قلب القارئ الحقيقي: ((اعلم أن هذه القصيدة قد ترددت بين أبيات سوقيّة مبتذلة، وأبيات متوسطة، وأبيات ضعيفة مرذولة، وأبيات وحشيّة غامضة مستكرهة، وأبيات معدودة بديعة، وقد دللنا على المبتذل منها، ولا يشتبه عليك الوحشي المستكره...))[36] ، الباقلاني –هنا– في قمّة انحيازه المنهجيّ الذي يريد أن (يدني) من الخطاب الشعري الخاص بإمرئ القيس؛ لكي (يعلي) من مقام الإعجاز.

وقد يحيل المؤلف على فهم القارئ لكي يحدّد غرضاً بلاغيّاً، أو نقديّاً هو أعرف بما فيه تاركا: (النظر)، و(التصوّر)، و(الفهم)، و(التأمّل) يأخذ طريقه إلى وعي القارئ: ((فانظر فيما نعرض عليك، وتصوّر بفهمك ما نصوره ليقع لك موقع عظيم شأن القرآن، وتأمل ما نرتبه ينكشف لك الحق))[37] ، وهذا يعني أنّ للمؤلف سلطة قول وظيفتها تأثيريّة بلاغيّة، فهو حينما يفكّر بحسب المفهومات البلاغية المتداولة، فإنّما ينظر مبدئيًّا إلى النص من زاوية المستمع: القارئ، ويجعله تابعًا لمقصديّة الأثر، ففي النموذج البلاغي التواصُلي يحتل متلقي الخطاب المقام الأول[38].

وقد يدعو المؤلفُ القارئَ الماثل في الذهن والأسطر إلى التحقّق من فرضياته في الكتاب زيادة في المشاركة، واقتراباً من الهدف المرجو من تأليفه: ((ثم انظر في أية أية، وكلمة كلمة: هل تجدها كما وصفنا: من عجيب النظم، وبديع الرصف؟ فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فكيف إذا قارنتْها أخواتها، وضامتْها ذواتها ممّا تجري في الحسن مجراها، وتأخذ في معناها؟))[39] ، هذا الأسلوب الخاص بالمشاركة الفعليّة بين المؤلف، وقارئه الضمني دليلٌ على أنّ (التأليف) فضاء ((تنمو فيه المعاني، وتتناسل المؤثِّرات، والمتلقي يُولد – بحسب طاقته القرائيّة – ظلالاً من المعاني الممكنة، أو يضع اليد على معان محجوجة مكررة، ويَستجيب – إن صدًّا

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/529

أو قبولاً – لما يبسطه النصُّ من أسئلة يعود معظمها إلى بنية القول وهَيْئته، ويعود بعضها الآخر إلى ما أنتج قبلَه من نصوص تزدحم في ذاكرة القارئ[40])).

والباقلاني كثيراً ما ينفتح على قارئه مشاركاً إياه في تحليل الخطاب، وإنتاج المعرفة بحميميّة تكاد توحي بمبدأ الصداقة الرابطة بين الإثنين: ((وكم جئتَ الى كلام مبسوط يضيق عن الإفهام، ووقعتَ على حديث طويل يقصر عما يراد به من التمام... وأنتَ لا تجد في جميع ما تلونا عليك إلا ما إذا بُسط أفاد...ثمّ فكرّ بعد ذلك في آية آية، أو كلمة كلمة [...] فأجّل الرأيَ في سورة سورة... ما رأيكَ في قوله: (إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها...) النمل: 34 [...] ثمّ فكّر بعد ذلك في شيء أدلك عليه: وهو تعادل هذا النظم في الإعجاز، في مواقع الآيات القصيرة، والطويلة، والمتوسطة...))[41].

وقد تكون دعوة المؤلف للقارئ جادّة مصحوبة بشرط القراءة الواعية: ((خذ الآن –هداك الله –في تفريغ الفكر، وتخلية البال، وانظر فيما نعرض عليك، ونهديه إليك متوكلا على الله، ومعتصماً به، ومستعيذاً به من الشيطان الرجيم حتى تقف على إعجاز القرآن العظيم))[42] ، فالدعوة السابقة تتضمّن بعض الشروط الخاصّة بالقراءة المفيدة التي تنفتح على موضوع جاد يمكن أن يقف القارئ الجاد على محصوله، وهو يسلك طريق القراءة الدقيقة في فاعليّتها التمكينيّة.

وقد تكون الدعوة إلى القارئ الضمني ممزوجة بحسّ منهجيّ: تطبيقي: ((تأمل قوله: (فالِقُ الإصباحِ، وَجَعَلَ الليلَ سكنا، والشمسَ والقمرَ حُسبانا، ذلك تقديرُ العزيزِ العليم) سورة الأنعام: 96 أنظر إلى هذه الكلمات الأربع التي ألَّف بينها، واحتجّ بها على ظهور قدرته، ونفاذ أمره، أليس كلُّ كلمة منها في نفسها غُرّة؟، وبمفردها درّة؟، وهو– مع ذلك– يبيّن أنّه يصدر عن علو الأمر، ونفاذ القهر، ويتجلى في بهجة القدرة، ويتحلى بخالصة العزّة، ويجمع السّلاسة إلى الرصانة، والسّلامة إلى المتانة، والرونق الصافي، والبهاء الضّافي))[43] ، فالباقلاني وهو في قمّة الانحياز إلى قارئه يستخدم ((الوجهة التطبيقية لتقريب ما يريد من أمر الإعجاز القرآني، وبيانه، ولذلك يفسح له طريقاً، ويفتح له باباً، ويضع الأمثلة، ويعرض الأساليب، ويصوّر الصور من كل قبيل من النظم والنثر))[44] .

ويلجأ الباقلانيّ كثيرا إلى مخاطبة القارئ الضمني بما يعرف اليوم بالأساليب التربويّة التي تراعي حال المخاطَب بالدعوة الصريحة إلى حثّه على (التأمّل)، واستدراجه بوساطة استفهامات مغلّفة برؤية نفسيّة شفيفة إنعاما في الدعوة إلى التلقي والفهم: ((وإذا تأملت على ما هديناك إليه، ووقَفْناكَ عليه، فانظر هل تجد وَقْعَ هذا النور في قلبك، واشتمالَه على لُبِّكَ، وسريانه في حسّك، ونفوذَه في عروقك، وامتلاءَكَ به إيقانا وإحاطة، واهتداءك به إيمانا وبصيرة؟، أم هل تجد الرُّعبَ يأخذ منك مأخذه من وجه، والهزّة تعمل في جوانبك من لون، والأريحيّة تستولي

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/529

عليك من باب؟))[45]، وهو ما يبدو واضحا في قوله: ((وأن أردت أن تتبين ما قلناه فضل تبين بما ادعيناه زيادة تحقق فإن كنت من أهل الصناعة فاعمد إلى قصّة من هذه القصص، وحديث من هذه الأحاديث فعبّر عنه بعبارة من جهتك، واخبر عنه بألفاظ من عندك حتى ترى فيما جئت به من النقص الظاهر وتتبيّن فضل القرآن الدليل الباهر...))[46] ، وكذا الحال في قوله: ((وأنت لا تجد في جميع ما تلونا عليك إلا ما إذا بسط أفاد، وإذا اختصر كمل في بابه وجاد...))[47] ، وهكذا تجد الباقلاني قريبا من قارئ يعنى به يريد من خلاله أن يلفّ نصّه بالعناية المنهجة القائمة على حسن التفكير: ((ألا ترى أنّ الشاعر المفلق إذا جاء إلى الزهد قصر... وفي ما شرحناه لك كفاية، وفيما بيناه بلاغ))[48].

ويقول (الباقلانيُّ) مخاطبا القارئ المضمّن في سياق الكتاب: ((وأنتَ تتبين في كلّ ما تصرّف فيه من الأنواع أنّه على سمت شريف، ومرقب منيف يبهر إذا أخذ في النوع الرَّبِّيِّ، والأمر الشرعي، والكلام الإلهي...))[49] ، قاصدًا الإشارة إلى جنس القرآن الكريم المخالف لأنواع أجناس الأدب عند العرب في طريقة نظمه التي تشكّل نصّا خاصّاً ليس شبيها بنظم كلام العرب.

ويحلو للمؤلف أن يخاطب المتلقي نفسه مع الدعاء له: ((أنظر– وفّقك الله – لما هديناك إليه، وفكّر في الذي دللناك عليه، فالحقُ منهجٌ واضحٌ، والدينُ ميزانٌ راجحٌ، والجهلُ لا يزيد إلا عمًى، ولا يورثُ إلا ندمًا))[50] ، فبين فعلي الأمر: (انظر) و(فكّر) تنهض الجملة الاعتراضيّة – وفّقك الله – لافتة نظر القارئ إلى محبّة المؤلّف وهو يديم الصلة مع القارئ بحميميّة نادرة ،وهكذا يأخذك الباقلاني إلى تصوّر قارئ لا بد من حضور حالته في الكتاب ليكون عونًا للقارئ الحقيقي على الفهم: ((وقد بينت لكَ أنّ القوم يسلكون حفظ الألفاظ وتصنيعها، دون ضبط المعاني وترتيبها))[51] ، ويخاطب الباقلاني القارئ نفسه: ((ألا ترى أنّ الشعر في الغزل إذا صدر عن محبّ كان أرقّ وأحسن، وإذ صدر عن متعمل، وحصل من متصنّع نادى على نفسه بالمداجاة، وأخبر عن خبيئه في المراياة))[52] ، فالقارئ منغمس في قضيّة نقديّة حدّد إطارها الفنيّ المؤلّف بلغة تدعو إلى التفكير والتأمّل بعيدا عن الإلزام والتعالي.

ويضع الباقلاني أحيانا القارئ نفسه في لحظة (الارتياب) والشكّ التي هي جزء من منهج معروف، وهدفه دفع القارئ إلى مزيد من الوعي بالمقروء: ((وإنْ ارتبت فيما بيّناه فازدد في تعلم الصنعة، وتقدّم في المعرفة فسيقع بك على الطريق الأرشد، وسيقف بك على الوجه الأحمد، فإنّك إذا فعلت ذلك أحطت علما، وتيقنت فهما))[53] ؛ أي تعلّم الثقافة لغرض الحوار للوصول إلى الحقيقة التي هي هدف كلّ عالم ومتعلم، وقد يفترض قارئا يسلك مسلك الظن، أو التوهّم في قراءته، وهدفه إحضار عدد من القرّاء بمستويات قرائيّة مختلفة: ((فأمّا أنْ يظن ظانٌّ،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/529

أو يتوهم متوهم أن جنس الشعر معارض لنظم القرآن (فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير) الحج: 32))[54] ، فالقارئ الظانّ ليس القارئ المتوهّم؛ لأنّ بين (الظنّ) و(التوهّم) مسافة معلومة.

وقد يناقش المؤلف القارئ بلغة تساؤليّة تحضيضيّة واضحة: ((هلا جعلت بإزاء الكفرة مثل لبيد بن ربيعة العامري في حسن إسلامه، وكعب بن زهير في صدق إيمانه، وحسان بن ثابت وغيرهم من الشعراء والخطباء الذين أسلموا؟))[55].

ويجد المتابع روح المشاركة بادية في خطاب (الباقلاني) بحميميّة واضحة: ((قد نسخت لك جملا من كلام الصدر الأول، ومحاوراتهم، وخطبهم، وأحيلك فيما لم أنسخ على التواريخ، والكتب المصنفة في هذا الشأن))[56] ، وهي مشاركة كثرت شواهدها في الكتاب، وصار من المؤكّد أنّ المؤلف أحسّ تكرار أنساقها، فراح بوحي من براعته يداري القارئ القابع في وعيه لينسخ له، و يحيل على التواريخ، والكتب رغبة منه في التخفيف عن كاهله، والتدبير له، ويقينا كما قال الجاحظ (255هـ) إنّ وجه التدبير في الكتاب إذا طال ((أن يداريَ مؤلفُه نشاطَ القارئ له، ويسوقَه إلى حظّه بالاحتيال، فمِن ذلك أن يُخرجه من شيء إلى شيء، ومن باب إلى باب، بعد أن لا يخرجه من ذلك الفن ومن جمهور ذلك العلم))[57].

إنّ حضور القارئ في متن (الباقلاني) يكشف عن نزعته الإنسانيّة المتمثّلة في حاجته إلى من يسهم في الإطلاع على ما ينتج، فقارئُهُ ليس سلبيّاً، ولا متلقيّاً اعتياديّاً، إنما هو قارئ ناقد يتبادل القراءة مع المؤلف؛ ولهذا صار له موقع مهمّ في سياق الكتاب بهدف فهم النصوص التي تحتوي على عدد من (الفجوات) المبثوثة على وجه السياق التي يقع على عاتقه القيام بإجراءاته القرائيّة لكي يكمل المعنى، فقارئ الباقلاني ((يمثل بنية نصيّة تتطلع إلى حضور قارئ لتقيم جسرا بينه وبين النص))[58] ، وقد أصبح ((النص بهذا المفهوم الجديد مليئًا بالثقوب والفجوات، ثقوب يُكلف القارئ وحده برَتْقِها، وفجوات يقوم القارئ وحده بملئها))[59].

لقد اتّضح لقارئ الباقلاني (الحقيقي) أنّ استدعاء صيغة (القارئ الضمني) في كتاب: (إعجاز القرآن) ما كان إلا لغرض بناء النص، وتحديد رؤيته، وإكمال شكله، وخلاصة فحواه، وهو إن دلّ على شيء فإنّما يدل على طرافة الكتاب، وسعة عقل المؤلّف، وحضور المنهجيّة الحيّة فيه.

الخاتمة:

1- كان الباقلانيُّ قد استدعى شكل (القارئ الضمني)، وجوهر وجوده الذهني في كتابه، وإنْ لم يسمه بـ(القارئ) إنّما كان قد سمّاه بـ(السائل)، و(القائل)، وهو ما بدا واضحا في حضور مجموعة من الموحيات والإجراءات التي تحيل على مضمون ذلك القارئ، وقد تفاعل (المؤلف) مع حالاته التي تدلّ على انبثاق المتعة، والمشاركة في اظهار الكتاب.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/529

2- كان الباقلانيُّ قد توجّه إلى عدد من القرّاء وليس قارئا واحدا، فقد توجه إلى: القارئ البعيد، والقارئ القريب، والقارئ المعاند، والقارئ الظانّ، والقارئ المتوهّم، وهؤلاء القرّاء هم من ابتداع تخيّله، وليس لهم وجود حقيقي، بل وجودهم مقرون بالذهن بوصفهم (حالات) تستدعي الاستجابة للنص النقدي، وهو عين ما قدّمه (آيزر) في موضوعة القارئ الضمني.

3- إنّ نظريّة (القراءة والتلقي)، وإنْ كانت غربيّة المنشأ إلا أنّ منشأها لم يمنع من حضورها في النقد العربي القديم على نحو ما سردناه فيما مرَّ من كلامنا آنفا، فهي نظريّة انسانيّة في المقام الأوّل ولها تطبيقاتها، وجذورها التي تمتح من نضح الفكر الإنساني المنظّم.

الإحالات:

1 – ينظر. ناظم عودة خضر: الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق، عمّان، 1997، ص 159.

2 – ينظر. فولفغانغ آيزر: فعل القراءة (نظرية جمالية التجاوب في الأدب)، ترجمة حميد لحمياني، الجلالي الكدية، مكتبة المناهل، فاس ،1995، ص 31.

3- شكري المبخوت: جماليّة الألفة : النص ومتقبّله في التراث النقدي، بيت الحكمة، تونس 1993، ص 73.

4- ينظر. المرجع نفسه.

5- محمد اقبال عروي: مفاهيم هيكلية في نظرية التلقي، مجلة عالم الفكر، ع3، مج 37، مارس 2000، ص 55.

6- ينظر. ناظم عودة خضر: الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ص 121.

7 – حسام الخطيب: البنيوية والنقد العربي القديم، مجلة الموقف الأدبي، عدد خاص *بالتراث* النقدي، ع2 ص1986 .

8- للمزيد ينظر: حاتم الصكر: منزلة المتلقي في نظرية الجرجاني النقدية، مجلة المورد، م19، ع2، بغداد 1990. وبشرى موسى صالح نظرية التلقي: أصول وتطبيقات، دار الشؤون الثقافية بغداد 1999. ونادية هناوي سعدون: القارئ في الخطاب النقدي العربي المعاصر، بغداد، 2008، ص 9، 10 .

9 – تحقيق: السيد أحمد صقر دار المعارف بمصر 1963.

10- محمد عابد الجابري: الخطاب العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، دار الطليعة، بيروت، ط 4، ص 10.

11 – نصوص الشكلانيين الروس توماشفسكي: نظرية المنهج الشكلي، ترجمة إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، 1982، ص 175 .

12- الباقلاني: إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر دار المعارف، مصر1963، ص 7.

13- المرجع نفسه، 7.

14 – عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1984، ص 291.

15- الباقلاني: اعجاز القرآن، ص 305.

16- ينظر. محمد خلف الله أحمد: من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، دار العلوم للطباعة والنشر، ط3، ص 36.

17- الباقلاني: إعجاز القرآن، ص 6.

18 – شكري المبخوت: جمالية الألفة، النص ومتقبّله في التراث النقدي، بيت الحكمة، تونس 1993، ص 13.

19- الباقلاني: إعجاز القرآن، ص 66.

20- المرجع نفسه، ص 107.

21- المرجع نفسه، ص 300.

22 – : منذر العياشي: مقالات في الأسلوبيّة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1990، ص 144.

23- الباقلاني: إعجاز القرآن، ص 26-29.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/529

24- المرجع نفسه، ص 31.

25 - المرجع نفسه، ص 39.

26- المرجع نفسه، ص56.

27 - المرجع نفسه، ص 245، 246.

28 - المرجع نفسه، ص 250.

29- المرجع نفسه، ص 260.

30 - المرجع نفسه، ص 215...291.

31 - المرجع نفسه، ص 298.

32 - ينظر. فولفغانغ آيزر: فعل القراءة (نظرية جمالية التجاوب في الأدب)، ترجمة حميد لحمياني، مكتبة المناهل، فاس، 1995،ص30 .

33 - الباقلاني: إعجاز القرآن، ص 37.

34 - المرجع نفسه، ص 158.

35 - المرجع نفسه، ص 160.

36- المرجع نفسه، ص 180.

37- المرجع نفسه، ص156.

38 - ينظر. هنر يش بليث: البلاغة والأسلوبيّة، ترجمة محمد العمري، منشورات سال، فاس الدار البيضاء، ط1، 1989، ص 16 .

39- الباقلاني: إعجاز القرآن، ص190.

40- شكري المبخوت: جمالية الألفة، ص 13 .

41- الباقلاني: إعجاز القرآن، ص 192،193.

42 - المرجع نفسه، ص 184.

43 - المرجع نفسه، ص 188.

44- محمد بركات حمدي أبو علي: مناهج وآراء في لغة القرآن، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان، 1984، ص28.

45 - الباقلاني: إعجاز القرآن، ص 202.

46- المرجع نفسه، ص 190.

47- المرجع نفسه، ص 192.

48 - المرجع نفسه، ص 200.

49 - المرجع نفسه، ص301.

50 - المرجع نفسه، ص303.

51 - المرجع نفسه، ص 226.

52- المرجع نفسه، ص 277.

53 - المرجع نفسه، ص 304.

54 - المرجع نفسه، ص 216.

55- المرجع نفسه، ص304.

56- المرجع نفسه، ص 153، 154.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/529

57- الجاحظ: البيان والتبيين: تحقيق عبد السلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي، مصر، ومكتبة المثنى، بغداد ط2 1960، ص 366 .
58- روبرت هولب: نظرية التلقي (مقدمة نقدية)، ترجمة عز الدين إسماعيل، كتاب النادي الأدبي الثقافي بجدة، ط1، 1994، ص19.
59 - عبد العزيز حمودة: الخروج من التيه، عالم المعرفة، ع298، نوفمبر 2003، ص 99.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/529